خطط دمشق

عند الحافظ ابن عساكر في تاريخه

الدكتور صلاح الدين المنجد

قلّ من العلماء المسلمين من أوتي فيما ألفه مالا حدّ له من الثناء الواسع والتقدير الكبير مثل الحافظ (ابن عساكر) صاحب (تاريخ دمشق) الثمانين مجلدة.

لقد كتب ولده ترجمة أبيه فقال: ولد في المحرّم أول الشهر سنة تسع وتسعين وأربعمئة (٤٩٩) وهو علي بن الحسن بن هبة الله. وعساكر لقب واحد من أجداده وسمع الحديث من كبار المحدثين وطاف البلاد ليسمع الحديث. فأقام في بغداد خمسة أعوام يحصل العلم ويستمع إلى كبار المحدثين. وكذلك سمع الحديث في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأصبهان، ونيسابور، ومرو، وهراة، والكوفة. وطاف في مدن العالم الاسلامي يومذاك يحدث حديث رسول الله. فحدّث في بغداد والحجاز وأصبهان ونيسابور، ووضع معجماً لشيوخه الذين أخذ عنهم، فبلغ عددهم ألفاً وثلاث مئة شيخ بالسماع، وبضعاً وثمانين امرأة، جعل لهنّ معجماً صغيراً سمعه الحافظ الذهبي.

وقد وصفه من كتب الحديث عنه فقالوا: كان فهماً، حافظاً، ذكياً، متقناً، بصيراً بشأن الحديث. لايشق شأوه، ولا كان له نظير في زمانه. واشتهر اسمه في الأرض.

وعمل أربعين حديثاً بلدانية.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإلى هذا فقد اهتم بالتأليف، فألف كتباً ثمينة نادرة ذكرناها في ترجمته في الجزء الأول من التاريخ الذي حققناه. وأعظم هذه المؤلفات:

١ ـ تاريخ مدينة دمشق في ثمان مئة جزء في ثمانين مجلداً كل جزء عشرون ورقة، فيكون ستة عشر ألف ورقة، لم يؤلف لأي مدينة في العالم الاسلامي مثله، وما كتب أحد عن تاريخ دمشق، ومن أنجبته من العلماء، ومن دخل إليها منهم، إلا رجع إليه . ومن مؤلفاته أيضاً:

معجم شيوخه اثنا عشرا جزءاً.

فضائل أصحاب الحديث، أحد عشر جزءاً.

تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري، مجلدة.

عوالي الأوزاعي.

من نزل من المحدثين غوطة دمشق، المزّة، والربوة، والنيرب، وكفر سوسية، وفدايا، وبيت سوا، وجسرين، وزملكا، وجوبر، وبيت لهيا، وبرزة، ومنين، ويعقوبا، وبعلبك.

ووضع مسنداً لأبي حنيفة.

وأملى أربع مئة مجلس وثمانية في الحديث. وله مؤلفات كثيرة غيرها.

وكان له شعر حسن، يمليه عقب كثير من مجالسه.

وكان له انجماع عن الناس، لا يخالطهم.

وتوفي في رجب سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وصلى عليه القطب النيسابوري شيخ العلماء، وحضر الصلاة عليه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. ودفن عند أبيه بمقبرة باب الصغير، شرق الحجرة التي دفن فيها معاوية.

هذا موجز من سيرته، وبالجملة فقد كان من أعظم العلماء الذين أنجبتهم دمشق.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأثنى عليه العلماء الكبار. فقال ابن كثير المؤرخ الدمشقي الكبير: صنف تاريخ الشام في ثمانين مجلدة، فهي باقية بعده خالدة. وقد برّز على من تقدمه من المؤرخين، وأتعب من يأتي بعده من المتأخرين. فحاز فيه قصب السبق، ومن نظر فيه وتأمله حكم بأنه فريد دهره في التواريخ، وأنه الذروة العليا من الشماريخ.

ثم قال: أكثر من طلب الحديث في الترحال والاسفار، وجاب المدن والأقاليم والأمصار، وجمع مالم يجمعه أحد من الحفاظ، نسخاً واستنساخاً ومقابلة وتصحيح ألفاظ (ابن كثير ١٣/ ٢٩٤).

وقال ولده القاسم: سمع أبي من ألف شيخ وثلاث مئة شيخ، وبضع وثمانين امرأة. وكانوا يفضلونه على الخطيب البغدادي.

وأنا أضيف إلى ما قاله الحافظ المؤرخ ابن كثير، أن تاريخ دمشق هو أعظم كتاب في تراثنا العربي أُلف عن بلدة من البلدان وهي دمشق.

فقد تكلم على فضائل الشام وفتوحها، وخططها، ومساجدها وأبوابها، ودورها، وكنائسها، وأنهارها، وقنيّها، وترجم لكلّ من دخل دمشق ومدن الشام عامة، من الجاهلية إلى القرن السادس الهجري، أيام نور الدين. فأتى بأضخم معجم للتراجم والمدن أُلف بعد تاريخ بغداد.

ولعلكم تتساءلون كيف اهتديت إلى تاريخ دمشق ؟

لقد كنت في شبابي مولعاً بالأدب، وكنت من كتاب مجلة (الرسالة) للأستاذ الزيات، في مصر، ومجلة (المكشوف) للأستاذ حبيش في بيروت. وكلتاهما من أعظم المجلات الأدبية. وكنت أتردد على أستاذنا الجليل محمد كرد علي في داره وأطلعه على ما أكتب. ففي ذات يوم زرته، وإذا به يفاجئني بقوله: إلى متى تضيع وقتك بهذه المقالات ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقلت: وماذا أفعل ؟

قال: هذا تاريخ دمشق لابن عساكر، أعظم تاريخ أُلف عن مدينة من المدن الاسلامية، مايزال مخطوطاً. لم يهتم به أحد. فابدأ أنتَ بتحقيقه، فتخدم بلدك ووطنك ولا يضيع وقتك سُدى.

منذ ذلك اليوم انصرفت إلى ما طلبه مني، وهيأت نفسي لمعرفة أصول التحقيق. ومضيت. فأنجزت تحقيق المجلد الأول، والقسم الأول من المجلدة الثانية المختصة بخطط دمشق. فكان وحيداً فرداً بين المؤرخين الذين ألفوا عن المدن الاسلامية، وأكثرهم توسعاً في الكلام عن خطط دمشق.

وقد فصلنا في كتابنا «مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين» كيف اعتنى ابن عساكر بذكر خططها عناية عظيمة لا نجد مثلها عند أي مؤرخ آخر.

١ ـ لقد بدأ بالمسجد الجامع الأموي الذي كان بيت القصيد فعقد له ستة أبواب، وذكر فيها شرفه وفضله، وقسمة الكنيسة، ثم بناء الجامع.

٢ ـ ثم ثنى بتعداد مساجد البلد حسب مواقعها في داخل المدينة وخارجها.

٣ ـ ثم عدد المساجد والمواضع المقصودة بالزيارة، وبين أماكنها.

٤ ـ ثم انتقل إلى الكنائس، فعدّد ما عرفه منها.

٥ ـ ثم انتقل إلى الدور التي كانت داخل السور، والمنازل التي كانت خارجه.

٦ ـ ثم ذكر الأنهار المحتفرة للشرب وسقي الزرع، والقني، والحمامات ومواضعها.

٧ ـ ثم ذكر أبواب المدينة ومقابرها، فبدأ بباب الجابية، وسجل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ما وجده من مساجد وقني وحمامات، شاطراً المدينة شطرين يحدهما (الشارع المستقيم) وهاذان البابان في الكتاب هما من أصح ما في هذا القسم، لأن الحافظ شاهد ما ذكره فيهما بنفسه ولم ينقل عن غيره.

وقد عنى بمسجد دمشق عناية كبرى، وذكر أخبار كنيسة مريحنا التي هدم الوليد ابن عبد الملك بقيتها وأدخله في المسجد. وذكر ما كان بجانب المسجد: الخضراء، قصر الإمارة، وقصر معاوية. وقد بنى معاوية الخضراء بالطوب أولاً، ثم بالحجارة.

ثم انتقل إلى ذكر أماكن الدور التي لها ذكر ولأصحابها قدر ومكانة.

وبعد ذلك اهتم بذكر المساجد في داخل دمشق. فذكر أسماء اثنين وأربعين ومئتي مسجد حسب حاراتها، وخمسة وعشرين مسجداً في أرباض دمشق من ناحية القبلة، وأحد عشر مسجداً في شرقها، وسبعة وثمانين مسجداً في شمالها، وخمسة وخمسين مسجداً في غربها، مع ذكر موقع كلّ مسجد واسمه.

ثم انتقل إلى ذكر الأبنية خارج السور، وما كان فيه من منازل وقصور.

فذكر منازل دمشق القبلية: مكان الراهب، ومحلة السفليّين، والشماسية، وعالية وعويلة قبلة مسجد القدم، والقطائع قبلي الشاغور.

وفي الشمال: سطرا، والفراديس، والأوزاع، والصدف، ومرج الأشعريين.

ومن الغرب: لؤلؤة الكبيرة، ولؤلؤة الصغيرة، وقينية، وصنعاء الحميريين، ومنازل بني رعين.

ومن الشرق: قرى الغوطة، والمرج.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم ينسَ ذكر حمامات دمشق وعددها سبعة وخمسون حماماً. ومن خلال ذلك لا ينسى ابن عساكر أن يتحدث عن أنهار دمشق ومجاريها: نهر بردى، ونهر يزيد، ونهر ثورة، ونهر باناس، ونهر مجدول، ونهر داعية، ونهر النونة، ونهر الزابون.

وكذلك عدد أسماء القني التي لها أوقات معينة يجري منها الماء خارج البلد وشماله وغربه.

وعدد أبواب المدينة وهي أحد عشر باباً. وهي:

١ ـ الباب الصغير، وهو القبلي.

٢ ـ باب كيسان، يلي الأول، من القبلة بشرق. ينسب إلى كيسان بن معاوية.

٣ ـ الباب الشرقي، كان ثلاثة أبواب: باب كبير في الوسط، وبابان صغيران من جانبيه.

٤ ـ باب توما، ينسب إلى عظيم من عظماء الروم اسمه توما. كانت على بابه كنيسة، جعلت فيما بعد مسجداً.

٥ ـ باب الجينيق، من الشمال أيضاً. منسوب إلى محلة الجينيق، محلة كبيرة كان بها كنيسة جعلت مسجداً.

٦ ـ باب السلامة. شمال البلد سمي بذلك تفاؤلاً لأنه لا يتهيأ القتال على البلد من ناحيته، لما دونه من الأشجار والأنهار.

٧ ـ باب الفراديس. في شماله أيضاً.

٨ ـ باب الفرج. من شآمه. أحدثه الملك العادل نور الدين وسماه بهذا الاسم تفاؤلاً لما وجد من التفريج بفتحه.

٩ ـ باب الحديد. من شآمه. خاص بالقلعة.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

١٠ ـ باب الجنان، غربي البلد.

١١ ـ باب الجابية. غربي البلد.

* * *

ثم انتقل إلى ذكر المقابر وبيان أمكنتها:

١ ـ مقبرة باب توما. أول مقبرة بدمشق للمسلمين.

٢ ـ أماكن قبور الصحابة، بظاهر دمشق، بباب الصغير وفيهم: معاوية، فضالة بن عبيد، واثلة بن الأسقع، أوس بن أوس، أبو الدرداء، أم الدرداء، أُبي بن كعب، أم حبيبة زوج رسول الله، بلال بن رباح مؤذن رسول الله، الوليد بن عبد الملك.

وتكلم على قبر معاوية. فبين أن هناك اختلافاً في موضعه. فهناك من قال أنه خلف حائط المسجد الجامع، والأصح أن قبره خارج باب الصغير.

ونلاحظ مما ذكرنا أن ابن عساكر قد وصف دمشق الرومانية ثم دمشق العربية. بحيث أن مخطط المدينة البيزنطية قد عاش ضمن المدينة الاسلامية.

فالطريق المستقيم الذي ورد ذكره في أعمال الرسل (من أسفار العهد الجديد) ظلّ الشريان الرئيسي، كما أن الطرق التي كانت تتعامد معه من جهة الشمال مازالت حتى اليوم. فتظهر المدينة على شكل مستطيلات متلاصقة ومنتظمة إلى حد كبير. وهناك حارات وأزقة تفصل ما بين زوايا المستطيلات السكنية في المدينة الرومانية.

ويخترق هذه المنطقة من الغرب إلى الشرق شارعان متوازيان الأول: الطريق المستقيم الذي يصل ما بين الباب الشرقي وباب الجابية (الباب الغربي). ويطلق على الجزء الغربي اليوم سوق مدحت باشا.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الثاني أصبح يدعى حديثاً جادة سوق ساروجة، طريق الطاحون. ويلتقي مع طريق (بين الحواصل) القادم من ساحة الشهداء (أي المرجة).

ونجمل الآن الخطط التي ذكرها ابن عساكر وبين مواقعها:

١ ـ الأماكن داخل السور:

السور والخندق ـ الأبواب والباشورات ـ الرحبات والمربعات ـ الأسواق والسويقات والسقائف ـ القناطر والأصنام والعمد ـ الدروب والأزقة ـ المساجد والكنائس ـ دور الحكومة والدور العامة ـ المدارس والرباطات ـ البيمارستانات ـ الفنادق والقياسر ـ المسالك والمعاصر ـ والمسالخ والطواحين ـ الحمامات ـ القني والسقايات ـ والعيون ـ الدور الخاصة.

٢ ـ الأماكن خارج السور في الأرباض:

القرى والمنازل ـ البساتين والمروج والميادين ـ المحالّ والحارات والأزقة ـ المقابر والقباب والقبور ـ الجبال ومواضع الزيارة.

وأختم كلامي بالإشارة إلى أن الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ قد تكلم في تاريخه على خطط بغداد. لكننا إذا قارنا ماكتبه، بما هو موجود عن خطط دمشق في تاريخ ابن عساكر تبين لنا أن ما كتبه ابن عساكر هو أضعاف ماسجله الخطيب.

ولكن نعتقد أن المقريزي قد تأثر بنهج ابن عساكر فيما كتبه عن خطط مصر والقاهرة، وتوسع في ذلك جداً.

أيها الأخوة الكرام

أعتذر إليكم عن تطويلي في الكلام، وآمل أن لا أكون أثقلت عليكم بهذا العرض الطويل، لكني أردت أن أظهر ما بذله ابن عساكر من جهد واستقصاء في تقديم ما قد نسميه اليوم « الموسوعة الجغرافية الطبوغرافية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

السياحية لمدينة دمشق وضواحيها » بأسلوب واضح لا يصعب فهمه وقد وضعنا مخططاً لدمشق القديمة بالاستناد إلى خطط ابن عساكر، من رجع إليه سهل عليه معرفة دمشق أيام ذلك المؤرخ الكبير وتمكن من الوصول إلى معظم الأماكن في أيامنا هذه.

ولا بدّ أن أختم كلمتي بالشكر الجزيل لمجمع اللغة العربية بدمشق بشخص رئيسه الألمعي الدكتور شاكر الفحام الذي أقام بجهوده هذا الاحتفال الرائع، وأحيا ما كان للمجمع العلمي العربي من تألق ولمعان.

ولكم جميعاً أخلص الشكر والامتنان.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مراجع البحث

١ ـ ابن عساكر (علي بن الحسن) ـ ٥٧١ هـ.

تاريخ مدينة دمشق.

المجلدة الأولى، والمجلدة الثانية (القسم الأول).

كلتاهما تحقيق صلاح الدين المنجد.

(مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٥٣ و ١٩٥٤).

٢ ـ الخطيب البغدادي (أحمد بن علي) ـ ٤٦٣ هـ .

تاريخ بغداد.

٣ ـ ابن كثير، الحافظ إسماعيل بن عمر (٧٧٤ هـ).

البداية والنهاية.

٤ ـ ابن طولون الصالحي، محمد بن علي (٩٥٣ هـ)

قرة العيون في أخبار باب جيرون.

تحقيق صلاح الدين المنجد.

(مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٦٤م).

٥ ـ صلاح الدين المنجد.

المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة. من القرن الثالث الهجري إلى العاشر.

(ط ٢ ـ بيروت ـ دار الكتاب الجديد).

٦ ـ صلاح الدين المنجد.

مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين.

(بيروت ـ دار الكتاب الجديد ١٩٦٧).

٧ ـ صلاح الدين المنجد

مخطط دمشق القديمة من الأمويين إلى المماليك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أسوارها، أبوابها، مدارسها، مساجدها، دروبها، مقابرها، وأماكن أثرية أخرى.

(دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢/ ١٩٧٧).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net